المؤتمر الأفخارستي بقرطاج ماي 1930م وتطور العمل الوطني بتونس

بقلم
د/ محمد السعيد عقيب(*)

ملخص

يعالج هذا المقال انعقاد المؤتمر الأفخارستي في تونس من 7 إلى 11 ماي 1930، والظروف المرافقة لتنظيمه، والخطوات المتبعة في الإعداد له، ويتتبع التظاهرات التي رافقت انعقاد المؤتمر، وكذلك ردود الفعل التونسية اتجاهه، ومختلف الأساليب التي استخدمها التونسيون للاعتراض على المؤتمر، وكيفية استغلال الوطنيين التونسيين انعقاد هذا المؤتمر للعودة للنشاط بقوة أكثر مما كانوا عليه سابقا، وانخراط العديد من الفئات في صف الوطنيين للتصدي للسياسة الاستعمارية المتبعة في تونس، مما شكل تطورا هاما في مسيرة الحركة الوطنية من أجل القضية التونسية.

مقدمة

تعتبر سنة 1930 سنة مفصلية في تاريخ النضال الوطني المغاربي ضد السياسة الاستعمارية التي طبقتها فرنسا بكل من تونس والمغرب الأقصى والجزائر، إذ حسبت الدوائر الفرنسية أنها تمكنت من الإخضاع التام للمغاربة في العديد من المستويات، فقامت بأعمال استعراضية خلال هذه السنة بكل قطر من الأقطار الثلاثة.

ففي تونس نظم المؤتمر الأفخارستي[1]، بأبعاد دينية تضمر العديد من المرامي وتعكس الكثير من الانطباعات التي أرادت السلطة الدينية والسلطة المدنية الفرنسية إظهارها للتونسيين وللفرنسيين وغيرهم على السواء، ولذلك حرصت على الإعداد للمؤتمر وكأنه مظهرا للانتصار المبهر، وسخرت من أجله الإمكانيات اللازمة الكفيلة بإنجاحه، دون النظر للظروف المتأزمة اقتصاديا واجتماعيا في تونس، ودون الأخذ في الاعتبار ردود الفعل الوطنية، ولا المواقف التونسية المختلفة اتجاه انعقاده.

(*) أستاذ محاضر "أ" بقسم العلوم الإنسانية ـ كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية ـ جامعة الوادي.

أكثر من هذا حاولت الهيئة المنظمة للمؤتمر بمساندة من السلطات الفرنسية ترسيخ الحق في التصرف في المحمية دون قيد أو اعتراض من سلطات الباي أو المجالس والهيئات المختلفة التونسية، بل وعمدت على إدخال بعض الشخصيات المرموقة في اللجنة الشرفية ليخول لها ذلك البرهنة على قبول التونسيين الرسميين وممثليهم لاحتضان هذا المؤتمر على أرضهم وبإمكانياتهم المادية والمعنوية.

فكيف جرت وقائع أحداث هذا المؤتمر؟ وما ردود الفعل المختلفة حوله؟ وما مدى تأثيره على تطور العمل الوطني في تونس؟.

1- **ظروف تنظيم المؤتمر الأفخارستي بقرطاج (تونس)**:

وقع تنظيم هذا المؤتمر من 7 إلى 11 ماي 1930 وتم أثناءه استعراض آلاف الأطفال الذين يرتدون أزياء موشاة بصلبان، تذكر بالحملة الصليبية الثامنة التي قادها لويس التاسع لاحتلال تونس سنة 1270، وهو ما استفز المشاعر الإسلامية للتونسيين ونظروا إلى هذا المؤتمر على أنه الحملة الصليبية التي نجحت خاصة وأنه كان يجري الحديث حول تجريد البلاد من صبغتها الإسلامية وتعهد الكنيسة المنتصرة بجلب الشعوب التي بقيت "ضالة" إلى حد ذلك التاريخ إلى حظيرتها، وذلك بفضل ما لديها من وسائل إقناع عتيدة، وقد ظهرت الصبغة التبشيرية للمؤتمر منذ البداية عندما كان رجال الدين يوزعون المنشورات باللغة العربية لدعوة المسلمين إلى اعتناق المسيحية.[2]

«أما الهيئة الشرفية للمؤتمر فقد وقع تشكيلها إثر محاولة أسقف قرطاجنة الحصول على رخصة من وزارة الخارجية الفرنسوية بإقامة المؤتمر في تونس، فقد علمنا أن وزير الخارجية امتنع من الترخيص في إقامة هذا المؤتمر مستندا إلى قانون الدولة بمنع ذلك ولكنه لم يعدم حلا للمسألة يرضي به رئيس الكنيسة، وهو تشكيل لجنة شرفية يرأسها سمو الباي ورجال دولته تحمل عليها مسؤولية الرغبة في انعقاد المؤتمر بالمملكة التونسية، فأصدر أسقف قرطاجنة منشورا إلى سمو ملك تونس والمقيم العام بها ورجال الدولة التونسية وكبرائها وأعيانها يطلب إليهم فيه قبول العضوية الشرفية للمؤتمر الأفخارستي، وقبل أن يتلقى جوابا من الذين دعاهم – بالقبول أو الرفض– نشر أسماءهم على صفحات الجرائد زاعما أنهم قبلوا بتلك المهمة التي فرضها عليهم فجعلهم بذلك أمام الأمر الواقع، وبجعله اسم سمو الباي وممثل فرنسا وبعض الوزراء في طالعة القائمة تحرج مركز الباقين وأصبح إعلان رفضهم لقبول عضوية قبل بها الأمير والوزير ليس من هينات الأمور».[3]

ولقد ضمت القائمة الشرفية للمؤتمر وجوها تونسية بارزة تتقلد وظائف دينية وسياسية عالية

كشيخ الإسلام محمد بيرم والمفتي المالكي محمد الطاهر بن عاشور والوزير الأكبر خليل بوحاجب ووزير القلم الهادي الأخوة والوزير السابق الطيب الجلولي، ومحمد شنيق ومحمد بن رمضان وعمر البكوش أعضاء القسم التونسي للمجلس الكبير، والشاذلي عقبي شيخ مدينة تونس وصلاح الدين البكوش قائد ضاحية مدينة تونس، وانعقد المؤتمر تحت الرئاسة الشرفية للباي وبذلك اكتسب شرعية لدى سلطات الحماية والأوساط الكاثلوكية فسهل بالتالي مهمتها، وساهمت سلطات الحماية لإنجاح إعداد المؤتمر وانعقاده بمنحة قدرها مليونان من الفرنكات بالإضافة إلى المقدار نفسه الذي تتحصل عليه الكنيسة كل سنة من ميزانية الدولة: أربعة ملايين من الفرنكات تدفع من جيوب التونسيين لانعقاد مؤتمر استفزازي في وقت كانوا أحوج إليها لتحسين أوضاعهم المعيشية.[4]

ولقد لقي هذا المؤتمر مساندة معنوية ومادية من مختلف الأطراف إذ ساندت انعقاده الحكومة الفرنسية بل أن وزير الخارجية الفرنسي بريان – Briand – أراد أن يظهر المؤتمر على أنه انتصار وطني قبل كل شيء، أما رئيس الجمهورية قاستون دومرق –Gaston Doumergue – فقد استقبلا أسقف قرطاج وشجعاه، وفي نفس الإطار خصصت سلطات الحماية للمؤتمر مبلغا ماليا هاما زيادة على ما تتلقاه كنيسة قرطاج سنويا من دعم مالي.[5] وهكذا فقد اعتبره الفرنسيون "حملة صليبية تاسعة"، ورأى التونسيون في هذا المؤتمر وانعقاده في بلاد إسلامية مسا بكرامتهم و إهانة لدينهم.[6]

وزيادة على ذلك فقد كان السكان المسلمون بالبلاد التونسية يرون في التظاهرات التي نظمتها الكنيسة بمناسبة المؤتمر الأفخارستي تهديدات خطيرة على الإسلام، فهذه التظاهرات التي تبدو عادية بل وحتى روتينية في بلاد مسيحية قد بدت وكأنها إهانة للإسلام وتشكل بذلك تحديات لسكان أغلبيتهم الساحقة من المسلمين، وأن هؤلاء لا يقبلون أن يوضع هذا المؤتمر المسيحي تحت سامي إشراف الباي الذي أصبح منذ إلغاء الخلافة سنة 1924 الزعيم الروحي للبلاد، وقد صدمهم أن يروا اسمي شيخ الإسلام الحنفي والمفتي المالكي ضمن قائمة الهيئة الشرفية للمؤتمر التي نشرتها "لا ديبيش" وأعادت نقلها الصحافة العربية.[7]

ومن ناحية أخرى التظاهرات والتصريحات المذكرة بعظمة كنيسة قرطاج القديمة وبالحروب الصليبية التي كانت ترمي إلى محاربة " الكفار" لبعثهم على اعتناق النصرانية، ولم يفت المشاركين في المؤتمر التصريح بأن اختيار قرطاج لتنظيم المؤتمر الأفخارستي إنما يرمي إلى بعث "كنيسة إفريقيا" من جديد وقد أطنبت في تحليل هذا الغرض النشريات الكنسية في ذلك العهد، مذكرة بالحنين إلى "عظمة كنيسة قرطاج القديمة"، وبالإضافة إلى هذا فقد كان البرنامج الرسمي للمؤتمر – وقد وزع توزيعا واسعا في البلاد – تضمن إشارات وتلميحات جارحة وجاء فيه بصدد

الحديث عن مسرح قرطاج " أن هذا المسرح وهو صنو لكوليزي روما، قد هدمه العرب خلال القرون الخوالي"، وحتى المفوض الرسولي للبابا ذاته الكردينال ليبسيي، كان قد تحدث في خطابه الرسمي، بحضور السلطات المحلية عند ذكره للحضور الإسلامي بالمغرب عن " أربعة عشر قرن من الأسى والموت"، زد على ذلك أن الأب يونس مساعد مطران قرطاج الأب لوماتر لم يفته أن يتعرض خلال جولاته وفي تصريحاته وكتاباته، إلى تنصير سكان شمال إفريقيا وهو أمر كان يراه ممكنا شريطة أن تسانده الدولة ماديا ومعنويا، ومطران قرطاج نفسه عند تقديمه المؤتمر الأفخارستي، كحملة صليبية كلها حب وسلام تنشطها روح "سان لويس" قد ذكر ضمنيا بإمكانية إعادة سلطان الصليب كما في عهد الرومانيين، بل ذهب المطران "لوماتر" حتى إلى الكشف في حديثه عن الفتيات المسلمات اللائي عهد بتربيتهن إلى الأخوات البيض عن النوايا الخفية للكنيسة قائلا : « إن المرأة هي التي سيدخل الدين يوما بفضلها إلى البيت المسلم، لأن ديننا يسمو بها ويحررها عوض إبقائها في حالة العبودية، وهو الهدف البعيد الذي كان يرمي إليه لافيجري». وكان تأثر السكان التونسيين بهذه التحديات شديدا خاصة أن الوضع الاقتصادي والاجتماعي أخذ في التدهور بعد فترة نسبية من الازدهار[8].

إضافة لذلك فقد رصدت إدارة الأشغال العامة خمسة ملايين لإنفاقها على رصف الطرقات وتمهيد الساحات، ونصب المظلات للوافدين في مكان انعقاد المؤتمر، ووقع تشكيل هيئة باسم: "الشركة المدنية للمؤتمر الأفخارستي" تحت رئاسة أسقف قرطاجنة، هي التي تولت قبض المليونين من الفرنكات لإنفاقها مع ما يتحصل لديها من بيع أوراق اليانصيب وجوازات الدخول لساحة المؤتمر وكراء أماكن للتجارة على مصالح المؤتمر، ونظرا لنفوذ أسقف قرطاجنة وحركته الدائمة التي جعلت له مكانا عند الحكومة فقد أمكنه أن يحشر في هذه اللجنة شرذمة من رجال الحكومة التونسية المسلمين وبعض الذوات من المسلمين والإسرائيليين والمسيحيين ومن بينهم شيخ مدينة تونس الشاذلي العقبي وعامل أحواز الحاضرة صلاح الدين البكوش ومن تحت هذين من الموظفين وغيرهم، أخذت هذه اللجنة تطوف على بعض الذوات الذين لهم مساكن حوالي قرطاجنة تستعيرها منهم لإنزال الوافدين بها وإذا تعذرت الاستعارة تسوغها منهم بالثمن.[9]

هكذا جرى التحضير والإعداد لهذا المؤتمر من مختلف النواحي المادية والمعنوية، وتحملت ميزانية الدولة المحمية ما لا تقدر عليه في ظرف تمر فيه البلاد بأزمة خانقة مست جل الفئات والعديد من المجالات خاصة الجانب الاقتصادي، وأخذت الوفود تحل بتونس من أجل حضور هذا المؤتمر وفق ما هو محدد له، فماذا كان موقف التونسيين منه ومن أشغاله؟

2- **ردود الفعل الوطنية**:

لم يقف الوطنيون التونسيون أمام انعقاد هذا المؤتمر موقف المتفرج، بل سعوا للوقوف ضد تنظيمه والعمل على التشويش على مجرياته منذ انطلاقة أشغال بداية بقدوم الوفود، واستخدم التونسيون العديد من الوسائل التي كانت متاحة لهم للتعبير عن موقفهم الرافض لتنظيم هذا المؤتمر على الأرض التونسية: كالإضرابات والصحافة والبيانات والنداءات والمظاهرات والتجمعات التي شارك فيها الطلبة والعمال وكل الفئات.

واغتنم التونسيون فرصة هذه التظاهرة المسيحية لإخراج الحركة الوطنية من السبات الذي أصابها منذ 1926، وقد وفر لهم المؤتمر الأفخارستي الفرصة لتعبئة السكان التونسيين ضد النظام الاستعماري الذي كانت آثاره آنذاك ملموسة بوجه خاص، وفي هذا الجو المتفجر استغل الوطنيون انعقاد المؤتمر للتنديد بتحالف الاستعمار مع الكنيسة الموجه ضد الإسلام والرامي إلى القضاء على الشخصية التونسية، وقد استعملوه أيضا لتصوير سياسة التمييز المطبقة من قبل سلطات الحماية التي كانت في فترة أزمة تحتاج البلاد فيها أشد الاحتياج إلى كل أموالها، تقتطع من ميزانية أهم مواردها صادرة أساسا عن الأهالي التونسيين، مساعدة لتظاهرة خاصة بالمسيحيين الكاثوليك وبنفس المناسبة وقع التأكيد للحفاظ على أموال دافعي الضريبة على ضرورة إحداث مجلس منتخب بالاقتراع العام وحكومة مسؤولة أمام هذا المجلس الذي ينبغي أن يكون الدائرة الوحيدة القادرة على التوجيه والمراقبة للتصرف في الميزانية، وبذلك فإن مؤتمر الأفخارستي بقرطاج قد مكن الدستور من مقاومة النظام الاستعماري على ثلاث أصعدة: الدين الإسلامي، والاستغلال والتمييز الاستعماريين والضمانات الدستورية.[10]

ولقد استغل الوطنيون العمل الدعائي فقاموا بحملة صحفية مناهضة كما دعا الدستور أحمد باي ليتخلى عن الرئاسة الشرفية للمؤتمر وذلك عبر عريضة تحمل678 إمضاء، ومن جهة أخرى وإزاء ضغط الرأي العام الشعبي كذب شيخ الإسلام محمد بيرم والباش مفتي المالكي محمد الطاهر بن عاشور أن يكونا قد وافقا على العضوية في اللجنة الشرفية للمؤتمر.[11]

وعندما تسربت أخبار هذا المؤتمر للحركة الوطنية قامت المظاهرات والإضرابات بقيادة الحركة الوطنية ونزل لميدان الصراع الشبيبتان من طلاب جامع الزيتونة وطلاب المدرسة الصادقية، وقادت جريدة: "صوت التونسي" حملات مؤثرة إلى أن أبطل هذا المؤتمر مزاعم القساوسة الاستعماريين.[12]

ففي يوم السبت 4 ذي الحجة 1348 الموافق 03 ماي 1930م، وهو اليوم الذي تقرر أن تنزل فيه أول طائفة من الرهبان الوافدين إلى المؤتمر ومنهم رهبان فرنسا، أصبحت البلاد مضربة عن

العمل، وأضرب عمال الرصيف بتونس وبنزرت عن العمل أيضا، وعندها أحست الحكومة بالخطر فحشدت فرق البوليس والجندرمة والجند في الشوارع ومحطات الارتال- السكك الحديدية -، وسورت بهم ساحة المؤتمر والمسالك الموصلة إليها، وبثت الأعوان السريين الرسميين منهم والمتطوعة في كافة الأنحاء، ونزل شيخ المدينة وأعوانه وبعض أعضاء الغرفة التجارية إلى أسواق العاصمة، وأجبروا التجار على فتح دكاكينهم وزجوا ببعضهم في السجن لامتناعهم عن العمل، والبعض الآخر بدعوى التحريض على الإضراب[13].

وفي نفس اليوم 03 ماي 1930 دخل طلبة جامع الزيتونة في إضراب عن الدروس رافقته مظاهرات عديدة، وقد شن التلامذة المسلمون في معهد كارنو ومدرستي العلوية والصادقية إضرابا عن الدروس بدورهم، وشاركوا الزيتونيين في حركة المظاهرات إلى غاية 13 شهرا، وكان طلبة جامع الزيتونة يتقدمون المظاهرات الشعبية احتجاجا على تنظيم المؤتمر، وقد أفاد الباهي الأدغم في إحدى شهاداته أنه شارك، حين كان تلميذا بالمدرسة الصادقية، في مظاهرة ضد المؤتمر الأفخارستي كان عدد المتظاهرين بها – حسب تقديرات إدارة الأمن آنذاك – بين سبعة آلاف وسبعة آلاف وخمسمائة متظاهر أغلبهم من جامع الزيتونة، ذلك أن المدرسين كانوا عهدئذ يعدون بالمئات في حين يعد طلبة الجامع بالآلاف" الصادقية مابين 150 و160 تلميذا، كارنو لا أكثر من 50 تلميذا تونسيا".[14]

«وحوالي الساعة الحادية عشرة صباحا من اليوم المذكور أعلاه، خرج تلامذة مدرسة "الليسي كارنو"–مدرسة ثانوية فرنسوية– من المسلمين في مظاهرة منتظمة الصفوف – مع طلبة الزيتونة والصادقية وغيرهم – يتقدمهم زعماء منهم وتجولوا في الحارات الأوربية إلى أن وصلوا أمام الكنيسة وأمام دار المقيم العام الفرنساوي وهناك هتفوا بحياة الإسلام والوطن باللغتين العربية والفرنسوية، وسرعان ما تدخل البوليس وهاجمهم بقواته، واستعمل معهم وسائل الشدة والعنف سعيا وراء تفريقهم، ولما رجع المتظاهرون إلى المدرسة، امتنع مديرها من قبولهم وفي منتصف النهار اجتمع تلامذة الليسي كارنو مع زملائهم تلامذة جامع الزيتونة المضربين عن الدروس أيضا احتجاجا على انعقاد المؤتمر، وتوافد إلى هذا الاجتماع أفراد من معاهد التعليم الأخرى وبعد المداولة وإلقاء خطب حماسية في الموضوع، تقرر عقد اجتماع للطلبة في الساعة الثانية بعد الزوال بجامع الزيتونة، وما أزفت الساعة الثانية حتى اكتظت رحاب الجامع بجموع الطلبة من كافة المعاهد وأخذ الخطباء في إلقاء خطبهم فأحس البوليس بهذه الحركة فطوق الجامع ومنع أبوابه عن كل داخل أو خارج، وما كادت تتم الخطب حتى تدفقت جموعهم إلى الشوارع مخترقة قوات البوليس وسارت المظاهرة بساحات المدينة وأسواقها، وما مرت بإدارة من

الإدارات العامة إلا تصاعد هتافها يخترق الأفق، وكان عددها يربو على السبعة آلاف، وقد اصطدمت المظاهرة مرات عديدة بقوات البوليس فتفترق ثم تعود إلى الاجتماع في نقطة أخرى وتسير، وفي المساء رجع المتظاهرون إلى مساكنهم وقد نال البوليس من بعضهم بالضرب المبرح، واعتقل منهم في ذلك اليوم سبعة عشر تلميذا». [15]

وقد وجهت السلطات الاستعمارية إلى الموقوفين من المشاركين في المظاهرة والاعتراض عن المؤتمر تهمة تنظيم المظاهرة والتعرض لحرية العمل، والاعتداء على أعوان الشرطة بالشتم والضرب، ومنهم:

الشيخ محمد بن صالح كركر، متخرج من جامع الزيتونة ويشتغل بالتجارة سنه 31 عاما، سجن صبيحة يوم 3 ماي وأطلق يوم 8 منه، ثم حفظت قضيته فيما بعد. محمد بن صالح قزقز، وهو طالب بالجامع الأعظم من مساكن سنه 20 عام، سجن يوم 3 ماي وحكم عليه يوم 13 منه بالسجن مدة شهرين مع إسعافه بقانون التأجيل وبذلك أطلق سراحه. عبد العزيز بن العلجية، وهو من العملة، سنه 20 عاما سجن يوم 3 ماي، وفي يوم 13 منه حكم عليه بالسجن مدة شهرين مع الإسعاف وأطلق بذلك سراحه. الصادق بن مفتاح، وهو طالب بالجامع الأعظم من بلد العالية، سنه 19 عاما، سجن يوم 3 ماي وحكم عليه يوم 13 منه بالسجن مدة شهرين مع الإسعاف وأطلق سراحه. الطاهر بن علي بن سعد، وهو طالب بالجامع الأعظم من قبيلة أولاد عون، سجن يوم 3 ماي ويوم 13 منه حكم عليه مثل رفاقه. عبد الرزاق بن صالح (كزدغلي) وهو عامل بمصانع النسيج، سنه 18 عاما، سجن يوم 3 ماي ويوم 13 منه حكم عليه بالسجن مدة 15 يوما مع الإسعاف. الشاذلي بن علي بن محمد العباسي، وهو سائق سيارة، سنه 17 عاما، حكم عليه بالسجن مدة 8 أيام بدون إسعاف. عبد الرحمان الفورتي، وهو خياط، سجن مدة 5 أيام وحفظت قضيته. عمار الخذيري الجلاصي، وهو طالب بالجامع الأعظم سنه 22عاما، سجن مدة خمسة أيام وأطلق سراحه. الأخضري بن محمد بن رحمون، وهو طالب بالجامع الأعظم من الجزائر، سنه 21 عاما، سجن مدة خمسة أيام وحكم عليه يوم 7 جويلية بالسجن مدة شهر مع الإسعاف بقانون التأجيل. أحمد زروق ابن محمد المداني، وهو طالب بالجامع الأعظم من الجزائر، سنه 22 عاما، سجن مدة خمسة أيام وحكم عليه يوم 7 جويلية بالسجن مدة شهر مع الإسعاف. عمار بن عمر البجاوي، وهو طالب بالجامع الأعظم من قبيلة السواسي سنه 17عاما، سجن مدة خمسة أيام وأطلق سراحه. عبد الوهاب ابن الطيب بن سليمان، وهو طالب بالجامع الأعظم سنه 18 عاما، مدة خمسة أيام وأطلق سراحه. المختار العروسي، وهو سراج، سنه 21 عاما، سجن مدة 3 أيام وأطلق سراحه، محمد بن الشيخ علي من بلد مساكن سنه 20 عاما طالبا بالجامع الأعظم سجن ثلاثة أيام وأطلق سراحه. البشير الشابي،

وهو تلميذ بالقسم الثانوي من المدرسة العلوية، سنه 18 عاما، سجن وأطلق مثل رفاقه. إسماعيل عزيز، وهو نساج بمعامل النسيج، سنه 18 عاما، وهو الكاتب الأول للجنة شبان الأحرار الدستوريين بالرياض، سجن مدة 3 أيام وأطلق سراحه، أما الذين اعتقلوا مرارا وأوقفوا بسجن الكوميسارية بعض ساعات، ثم أطلق سراحهم فهم: سالم شعبان، صالح بن يوسف، صالح العنزى، محمد المحرزي، الطيب سليم، ومنهم الشيخ عبد الفتاح من طلبة الجامع الأعظم وعبد الوهاب البراملي من عمال المطابع وغيرهم.[16]

وفي الغد الأحد 4 ماي قرر التلامذة احتجاجا منهم مواصلة الإضراب واستئناف المظاهرات حتى يفرج عن رفاقهم، وفي عريضة موجهة إلى الوزير الأكبر وإلى الصحافة احتجوا على المس بالحريات الديمقراطية وأكدوا تضامنهم مع رفاقهم الموقوفين، وألحوا في المطالبة بالإفراج عنهم ويوم الاثنين 5 ماي تجمع المتظاهرون أمام الإقامة العامة ثم فرقوا من جديد فتوجهوا إذ ذاك نحو بطحاء الحلفاويين وتجمعوا في جامع صاحب الطابع، وفي نفس اليوم أفرجت الشرطة عن ستة من الموقوفين السبعة عشر، أما الـ 11 الآخرون فقد وجهت إليهم تهمة المس بحرية العمل والتحريض على الإضراب واستعمال وسائل العنف ضد أعوان الأمن والإضرار بالأمن العام، وبهذا كانت السلطات الاستعمارية تريد إبطال فعل المسيرين وإحباط مظاهرات محتملة وقت التئام المؤتمر من 7 إلى 11 ماي 1930.[17]

وفي هذا الاتجاه استدعى مدير الأمن بعض المسؤولين في الحزب الحر الدستوري مثل الشاذلي خير الله مدير: "صوت التونسي" ومحي الدين القليبي[18] مدير الحزب، وعمر بن قفصية الأمين العام لشعبة الحلفاويين الدستورية القوية، ونسب إليهم مسؤولية الأحداث الأخيرة وهددهم بالإيقاف في حالة وقوع أحداث جديدة، وعندما هدأ الوضع وانتهى المؤتمر سارعت السلطات الاستعمارية إلى حفظ قضية الموقوفين، على أن إيقاف تلامذة شبان لم يمر بدون إثارة غضب الرأي العام لدى السكان المسلمين وكذلك لدى اليسار الفرنسي بالبلاد التونسية، وقد احتج كل من الفرع التونسي للرابطة النسائية للسلم والحرية وكذلك فرع الحزب الاشتراكي باسم الحريات الديمقراطية ضد القمع «الذي اتخذ صبغة تنكيلية وتعسفية وخاصة عندما يطبق على شبان هم أقرب ما يكونوا إلى الطفولة».وذهبت هاتان المنظمات حتى إلى بعث وفود لدى المقيم العام فرنسوا مانصرون الذي أبدى استعدادا لاتخاذ إجراءات التهدئة رغم تأكيده على أنه لا يمكنه التدخل في شؤون المحكمة الفرنسية، ومع ذلك فقد كان من صالح حكومة الجمهورية تهدئة الوضع لإنهاء قضية كانت تظهر فيها كمدافعة عن مصالح الكنيسة بالبلاد التونسية، وتضعها في وضع يتناقض مع المبادئ اللائكية التي لم تزل قطاعات عريضة من سكان الفرنسيين شديدة

التمسك بها، لذلك فإن العدالة الفرنسية التي تعود إليها طبقا للأوامر الجائرة، كل الجنح السياسية مهما كانت جنسية مرتكبها، قبلت بطلب من المحامين الإفراج عن خمسة من 11 موقوفا، وقد قدم إلى المحكمة في 13 ماي 1930 المتهمين الستة الآخرون وحكم عليهم بالسجن من 8 أيام إلى شهرين مع تأجيل التنفيذ، وفي نفس اليوم أفرج عن كل الموقوفين واستأنفت الدروس في كل المعاهد، وقد بدا لسلطات الحماية أن مسألة مؤتمر قرطاج قد انتهى أمرها على أن هذه القضية قد أسهمت في إخراج الحركة الوطنية من خمولها وكشفت عن وجود قوى جديدة بالبلاد التونسية سوف تلعب فيما بعد دورا هاما في تأطير الاتجاه الوطني التونسي، وتوجيهه نحو التصلب، فزيادة على العمال وصغار التجار وأرباب الصناعات والطلبة الزيتونيين الذين كانوا يشكلون حتى ذاك الحين قوة الحركة الوطنية، قد برز بمناسبة مؤتمر قرطاج على الساحة السياسية التلامذة والطلبة من ذوي التكوين العصري، وبصفة عامة فإن مقاومة نظام الاستعمار قد استأنفت في الثلاثينيات رغم العقوبات الثقيلة التي نصت عليها الأوامر الجائرة واتسع مدى هذه المقاومة واتسم بمشاركة أهم للجماهير الشعبية.[19]

ومن الوسائل التي استخدمها التونسيون في إبداء تذمرهم ومعارضتهم لتنظيم هذا المؤتمر الصحافة فنشطت العديد من الجرائد في هذا السبيل كجريدة "الزهرة"[20]، وجريدة "صوت التونسي" التي كتب على صفحاتها شمس الدين العجيمي بتاريخ 03 ماي 1930: «إن العبرة التي يجب استخلاصها من هذا المؤتمر هو أن نكون جميعا متحدين وراء ديننا الذي يجب أن يكون وسيلتنا للعمل، ولئن كان من شأن التعليم الذي تلقيناه أن يحررنا من الأوهام والمعتقدات الزائفة، فلا ينبغي له أن يؤول بنا إلى جحد ديننا الذي طبع تقدم الإنسانية وأنشأ حضارة من أزهى وألمع الحضارات التي شهدها التاريخ، ولا ننسى أن عقيدتنا هي كل شيء عندنا وأننا لم نفلت من مجسات الإخطبوط الإدماجي إلا بتوثيق علاقاتنا مع الرسالة المحمدية، ولنتطور حقا، ولكن في نطاق عاداتنا وتقاليدنا وأخلاقنا الدينية والوطنية، ولنتلاءم مع مقتضيات العصر ولنسر بعزم وبخطى ثابتة على درب التقدم، وراء اللواء النبوي الأخضر».[21]

وقد عملت اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري التونسي من أجل توسيع الحملة إلى الخارج، ومن ذلك أن محمد بن عمار استقبل للغداء في منزله بحلق الوادي سبعة دستوريين بينهم: محي الدين القليبي والشاذلي الرصاع، وكان هذا الغداء إكراما للصحفي اللبناني منيف اللبابيدي ومدير جريدة "الحضارة" البيروتية، وقد زار هذا الأخير رفقة القليبي والرصاع ضاحية قرطاج حيث أخذوا بعض الصور لاستعمالها في تزيين المقالات المضادة للمؤتمر الأفخارستي التي أبدى اللبابيدي استعداده لنشرها في جريدة "الثقافة" التي ستصدر بباريس، كما تولى الشيخ محمد

الخضر حسين[22] توسيع الحملة ضد هذا المؤتمر لتشمل مصر، فأصدر مكتب الأخبار التونسية بالقاهرة في تلك السنة نفسها كتابا بعنوان: "ظاهرة مريبة في سياسة الاستعمار الفرنسي- الحملة الصليبية التاسعة في المؤتمر الأفخارستي".[23]

كما استخدم التونسيون أسلوب النداءات واللوائح التي رفعت لمختلف المسؤولين وحتى من شاركوا في المؤتمر، وعلى رأسهم الباي"أحمد باي" فباسم الإسلام دعاه الدستور إلى رفض الرئاسة الشرفية للمؤتمر، وقد وجه النداء إلى الملك المسلم في رسالة حرص موجهوها على إكسابها صبغة تمثيلية ودعائية فذيلوها بمئات التوقيعات من مدينة تونس ومن داخل البلاد، وقد جاء فيها: « إن الروح التي يبديها المؤتمر بصفة مهينة والتي كانت مصدر أسف وألم لنا، تملي علينا ونحن رعاياكم المخلصون نشأنا على تقديس المشاعر الإسلامية التي هي مشاعركم، أن نتقدم إليكم بكل احترام راجين منكم الانضمام إلى شعبكم لاستنكار الصبغة العدوانية لهذا المؤتمر ورفض الرئاسة الشرفية، ومما لاشك فيه أن الروح الصليبية والتذكير ببرنامج سان لويس ليسا تظاهرتين متصفتين بالتعقل ولا هما مطابقان لقواعد الصياغة ولاسيما في بلاد مازالت وفية للديانة الإسلامية منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا خلت، ونحن واثقون بالفضائل السامية لجلالتكم وتمسككم بمبادئ الديانة الإسلامية وحميتكم للدفاع عن إيمان ومعتقدات شعبكم ليبقى الإسلام في هذه البلاد الدين المنيع وأملنا وثيق أن يحظى طلبنا بالقبول». وقد وجهت نداءات شبيهة إلى شخصيات تونسية عديدة « للفت انتباههم إلى ما للمؤتمر من صبغة حقيقية تجعله غير متلائم مع كرامتهم وعميق تجذرهم الديني، ولا يمكن إطلاقا أن تسمح لهم بالمشاركة في الهيئة المشرفة عليه، ولو بصفة شخصية، ومن باب أحرى كممثل مسلم لمؤسسة إسلامية ما».[24]

ومن باريس بعث طلبة شمال إفريقيا برقيات احتجاجية إلى الإقامة العامة منذ أفريل 1930، ذلك أن المؤتمر الأفخارستي كان مناسبة انخرط فيها الشباب والتلاميذ والطلبة في العمل الوطني من خلال الارتباط بالحركة الوطنية التي يقودها الحزب الحر الدستوري التونسي.[25]

وبمناسبة المؤتمر يبدو أن الشعور الديني قد امتزج كليا بالشعور الوطني، إلا أن الوطنيين التونسيين لم يكتفوا بالتنديد بالمؤتمر باسم الإسلام، ولا بالنداءات -المختلفة السابق ذكرها- ولكنهم استغلوا كذلك فرصة تنظيم هذه التظاهرات للتنديد ببعض المظاهر الأخرى للسياسة الفرنسية، بالبلاد التونسية، ولئن مكنهم المؤتمر من الكشف عن ظاهرة المس بالدين الإسلامي، فقد أتاح كذلك الفرصة لإبراز مآخذ على النظام الاستعماري، من تمييز واستغلال وانعدام الضمانات الديمقراطية، مثل: المساعدة المادية المقدمة للمؤتمر من قبل حكومة الحماية أي مشاركة كل من الأشغال العامة وإدارة الأمن، وبلدية مدينة تونس في إعداد المؤتمر زيادة على منحه مبلغ

مليون فرنك، وهذا المبلغ وكذلك ما تتحصل عليه الكنيسة التونسية من الدولة التونسية والبالغ حوالي مليوني فرنك هما مقتطعان من ميزانية البلاد التي يمولها أساسا الأهالي التونسيون. وهكذا فإن دافعي الضريبة اليهود والمسلمين هم الذين يساهمون في تمويل مشروع كاثوليكي صرف، وقد بلغ الشعور بهذا الاستغلال حدا كبيرا خاصة من أموال الدولة في هذا الوضع الاقتصادي والاجتماعي الصعب شيئا ما، ويمكن أن تصلح قبل كل شيء للتخفيف على السكان، هذا علاوة على مشاكل أخرى تهم التونسيين بالذات، مثل التعليم الذي أهملته الحكومة.[26]

بهذه الوسائل والأساليب تجند التونسيون، كل فئة وفق ما كانت قد أعدت له: سواء العمال أو الطلبة والتلاميذ أو الصحفيين، أو رجال السياسة وغيرهم، بغرض تحجيم تأثير المؤتمر في التونسيين، ومن أجل كشف السياسة الاستعمارية التي تستغل سكان المستعمرات لتحقيق رغباتها دون أدنى اعتبار للظروف التي تشهدها البلاد من تأثيرات الأزمة الاقتصادية، أو خصوصياتهم الدينية والثقافية، بل أكثر من ذلك كانت تحاول ضرب المجتمع التونسي في الصميم من خلال ضرب الهوية التونسية التي لا تنفصل عن المكون الديني المتمثل في الإسلام.

الخاتمة

تشكل الكثير من الأحداث التي تمر بها المجتمعات خاصة التي كانت تعاني من قيد الاستعمار وجها للضرر والنقمة لما ينعكس عليها من آثار ونتائج تضر الإنسان وأملاكه وأرضه، ولكنها بالمقابل تحمل في طياتها بغير قصد وجها للمنفعة والنعمة، وهذا ما ينطبق على انعقاد المؤتمر الأفخارستي.

فقد كان هدف الكنيسة والسلطات الفرنسية إظهار انتصار المسيحية وسيطرتها على البلاد التونسية، أكثر من ذلك أن التظاهرات والاستعراض الذي رافق المناسبة هدفه العمل على زعزعة عقيدة التونسيين لاستلالهم من الإسلام والدخول بهم في المسيحية من خلال أعمال التبشير، لكن يبدو أن هذا المخطط قد فشل في التأثير على التونسيين الذين استغلت أرضهم وماليتهم وأملاكهم لخدمة هذا المؤتمر.

وشكّل بذلك هذا الحدث عاملا مهما في بعث الروح من جديد في النشاط الوطني، أعطاه نفسا كبيرا من خلال الالتفاف الذي تحقق بانخراط مختلف الفئات وخصوصا فئة الشباب والطلبة والتلاميذ والعمال في الصف الوطني إلى جانب الحركة التي كان يقودها الحزب الحر الدستوري، وكان للعامل الديني دور الجامع لأن المؤتمر استهدف الدين الإسلامي وهوية التونسيين، وسيتعمق هذا التطور الذي شهدته الحركة الوطنية بعد الاحتفال بخمسينية الحماية السنة اللاحقة 1931م، وسيؤدي إلى تصلب أساليب ووسائل النشاط الوطني التونسي من خلال

مؤتمر الحزب الدستوري الذي سيقعد في نهج الجبل 13/12 ماي سنة 1933.

وهكذا فقد شكل عقد المؤتمر الأفخارستي دافعا مهما لتوحيد الصف التونسي بمختلف مكوناته وفئاته الاجتماعية ضد السياسة الاستعمارية الفرنسية المتبعة بتونس، سيتم الاستفادة منها في مواقف لاحقة لخدمة القضية التونسية.

- الحواشي والإحالات:

1 - الأفخارستيا أو سر التناول أو القربان المقدس هو أحد الأسرار السبعة المقدسة في الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية، والمؤتمرات الأفخارستية، هي سلسلة من المؤتمرات الدينية الكاثوليكية، نسبة إلى افخارستيا . انتظم أول مؤتمر أفخارستي في مدينة ليل الفرنسية في حزيران 1881، بمبادرة من لويس غاستون دي سيغور . وكانت هذه التظاهرة في بدايتها متواضعة من حيث امتدادها الجغرافي وعدد المشاركين فيها ثم اتسعت شيئا فشيئا لتخرج من فرنسا لأول مرة عام 1885 حيث انعقد المؤتمر الرابع في مدينة فريبورغ السويسرية والتاسع في القدس) 1893 .(وقد انعقد آخرها في كيبيك بكندا عام 2008 .

- انعقد المؤتمر الأفخارستي،بقرطاج بين 7 و11 ماي/ أيار 1930، وهو المؤتمر الثلاثون في سلسلة من المؤتمرات الدينية الكاثوليكية، المعروفة بالمؤتمرات الأفخارستية.وقد تم الاختيار على قرطاج باعتبارها قد كانت عاصمة قديمة للمسيحية في شمال إفريقيا .للمزيد انظر: الموسوعة الحرة ويكيبيديا: المؤتمر الأفخارستي بقرطاج https://ar.wikipedia.org/wiki/ . وكذلك يوسف مناصرية، الحزب الحر الدستوري التونسي 1920-1934، (رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر) جامعة الجزائر، معهد التاريخ، السنة الجامعية 1985-1986م، ص156.

2 - محمد ضيف الله، الحركة الطالبية التونسية 1927-1939، ط1، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، 1999، ص54. وكذلك : أحمد القصاب، تاريخ تونس المعاصر 1881-1956، تع: حمادي الساحلي، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، ص 533.

3 - مكتب الأخبار التونسية، ظاهرة مريبة في سياسة الاستعمار الفرنسي : هل تمثل مأساة الأندلس من جديد في شمال إفريقيا الحملة الصليبية التاسعة في المؤتمر الأفخارستي، القاهرة، المطبعة السلفية، 1349هـ، نقلا عن : المجلة التاريخية المغاربية (م ت م)، السنة السابعة، العدد 19-20، أكتوبر 1980، ص ص273-274.

4 - حفيظ طابي، الحزب الحر الدستوري التونسي 1934-1938، ط1، تونس، الدار التونسية للكتاب،، 2011، ص37.

5- محمد ضيف الله، المرجع السابق، ص ص54-55.

6 - الحبيب ثامر، هذه تونس، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1988، ص147. وكذلك :
Abdelhac," la laïcité au vestiaire" la Voix dub Tunisien, 10 MAI1930

7 - علي المحجوبي، جذور الحركة الوطنية التونسية، تع: عبد الحميد الشابي، ط1، تونس، بيت الحكمة، 1999، ص 507.

8 - نفس المرجع، ص ص 507-508.

9 - مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، م ت م، ص273.

10 - علي المحجوبي، المرجع السابق، ص509.

11 - محمد ضيف الله، المرجع السابق، ص55.

12 – الطاهر عبد الله، الحركة الوطنية التونسية رؤية شعبية قومية جديدة، ط2، تونس(سوسة)، منشورات دار المعارف للطباعة والنشر، 1990، ص58.

13 – المجلة التاريخية المغاربية، السنة السابعة، العدد 19–20، أكتوبر 1980، ص277.

14 – علي الزيدي، الزيتونيون دورهم في الحركة الوطنية التونسية1904–1945، ط1، تونس (صفاقس)، مكتبة علاء الدين، 2007،، ص ص 332–333.

15 – مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، م ت م، ص277.

16 – مكتب الأخبار التونسية، المصدر السابق، م ت م، ص ص295–296. وكذلك علي الزيدي، المرجع السابق، ص ص335–336.

17 – علي المحجوبي، المرجع السابق، ص ص516–517.

18 – محي الدين القليبي: ولد سنة 1901، لما بلغ الخامسة من عمره أرسله والده إلى الكتاب حيث حفظ القرآن وبعض المتون العربية والفقه،ثم انخرط بعد ذلك في سلط طلبة جامع الزيتونة، وانقطع عنه قبل الحصول على التطويع، كتب في الصحافة كجريدة الاتحاد، انتخب عضو للجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري إثر مؤتمره المنعقد في 22 أكتوبر1922، وواصل نضاله في صفوف الحزب سواء كان داخل تونس أو حتى حين مكوثه في مصر، وظل كذلك حتى وفاته غرة ديسمبر1954بدمشق –سوريا. للمزيد ينظر: عبد القادر القليبي، محي الدين القليبي أو جهاد ثلث قرن، تونس، سراس للنشر، 2004، ص15 وما بعدها.

19 – ظاهرة مريبة، المصدر السابق، ص ص 278–279، وكذلك: على المحجوبي، المرجع السابق، ص ص517–518.ومن المحامين الذين تطوعوا للدفاع عن المعتقلين: الأستاذ أحمد الصافي، وصالح فرحات والطاهر صفر، ودوران انفلبيال، والحبيب بورقيبة.

20 – الزهرة: وهي جريدة ظهرت عام 1890م وكان صاحب الامتياز لها هو: ه م.عقربي، ولما دخلت سنتها الثالثة أصبح صاحب امتيازها م.ب.حسن، ثم انتقل إلى محمد التليلي ومنه للشيخ عبد الرحمان الصنادلي وهو الكاتب ومحررها ومديرها من عددها الأول إلى أن عاجلته منيته، وواصلت صدورها في أشكال متنوعة أسبوعية ونصف أسبوعية ويومية، وعرفت الإيقاف الاضطراري والاختياري ولم تحتجب إلا في أوائل العهد الاستقلالي.للمزيد انظر: عمر بن قفصية، أضواء على تاريخ الصحافة التونسية 1860–1970، تونس، دار بوسلامة للطباعة والنشر، 1972، ص ص 8–9

21 – علي المحجوبي، المرجع السابق، ص512.

22 – محمد الخضر حسين: .ولد في رجب 1293ه الموافق 1876م، ولد بنفطة في تونس من أصول جزائرية، وهو عالم جزائري –تونسي، بين سنة ميلاده حتى سنة 1912 تلقى تكوينه، ثم غادر تونس إلى المشرق مرورا بطرابلس ومصر ثم سوريا وزار الأستانة وبرلين، واستقر في سوريا وسنة 1920عاد لمصر واستقر بها، وتقلد بها مناصب عليا كرئاسة تحرير مجلة لواء الإسلام" سنة 1366ه/1946م، وفي القاهرة اختير عضوًا بـ"مجمع اللغة العربية الملكي" عند إنشائه سنة 1351ه/1932م . واختير عضوًا لهيئة كبار العلماء سنة 1370ه/1950م. وتولى مشيخة الأزهر سنة 1952م، ثم استقال منها، توفي في 1377ه/1958م.وترك الكثير من المؤلفات. ينظر: محمد بن إبراهيم الحمد، الشيخ محمد الخضر حسين سيرته ومؤلفاته،،ط1، المملكة العربية السعودية، دار ابن خزيمة، 2014، ص ص7–9 وما بعدها.

23 –علي الزيدي، المرجع السابق، ص331.

24 – علي المحجوبي، المرجع السابق، ص ص509–510. وقد وجهت الرسائل المحتوية على مئات التوقيعات

إلى: الوزير ألأكبر خليل بوحاجب، ووزير القلم الهادي الأخوة، والوزير ألأكبر السابق: الطيب الجلولي، والحبيب العلام قائد الحرس الملكي، ومحمد شنيق ومحمد بن رمضان وعمر البكوش الأعضاء بالمجلس الكبير، والشاذلي العقبي شيخ مدينة تونس، وصلاح الدين البكوش عامل أحواز مدينة تونس. للمزيد ينظر: ظاهرة مريبة، المصدر السابق، م.ت.م، ص275.. وكذلك: عبد القادر القليبي، المرجع السابق، ص ص125-126.

25 – محمد ضيف الله، المرجع السابق، ص55.

26 – علي المحجوبي، المرجع السابق، ص 513.

The Eucharistic Congress in Carthage May 1930 and the development of national action

Dr. Mohammed said EAGUIEB*

Abstract

This article deals with the Eucharistic Congress in Tunis from 7 to 11 May 1930, and circumstances associated with it, as well as the steps involved in preparing for it, and we address the demonstrations that accompanied the conference, as well as the Tunisian reactions, and the various methods used by the Tunisians to object to the conference, and how the national Tunisian exploit holding of this conference to return to the activity more strongly, and the involvement of many of the categories in the national row to counter colonial policy followed in Tunisia, Which resulted in creation of an important development in the process of the National Movement for the Tunisian case.

Keywords: History - Tunisia - the Eucharist - colonialism - politics.

* Maître de conférence A - Faculté des sciences sociales et humaines – Université d'El-oued.